تنمية مدارك الطفل

غاية التربية والتعليم أن تعين على النمو : فالروح تنمو باستخدام مداركها ، والمدارك تنمو بمزاولتها نشاطها تلقياً وتعبيراً ، وهذه مظاهر مرتبط بعضها ببعض لا انفصام لها . إن قوام النمو [illegible] أن يعمل كل عضو لنفسه ، أي اذا أريد للطفل أن ينمو في عقله وجسمه فعليه أن يستخدم مداركه إذ أن نسبة استفادة الطفل من جميع مخارج التعبير التي منحه إياها الباري عز وجل تتوقف على مقدار نمو مداركه وسعتها ، فالنمو الذاتي عن طريق التعبير الذاتي هو الأول والآخر في التربية والتعليم وعليه المعول ، فعلى المعلم أن يقدم الرغبة والارشاد ، والمادة والكتاب ، ويقف عند هذا الحد ليترك لشخصية الطفل مخرجاً ، ولكن المعلم في مدارسنا في أكثر البلاد العربية يتداخل في درجة قصوى ، ويظهر تأثيره في كل شيء بحيث يصبح الطفل آلة مسيرة فهو الذي يشرح الدرس ، وهو الذي يكتبه على اللوح الاسود بلا انقطاع ، والطالب لا يقدم على عمل ما ، وقد يقوم بعمل ميكانيكي تقليدي ، وبذلك تمحي الصلة بين الادراك والتعبير بسبب تدخل المعلم ، فلا يترك الطالب يسعى لنفسه : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يُرى »

وإن خبرتي في التربية والتعليم تعطيني أجهر بما يأتي :

إن سبب تقهقر مدارسنا ناشيء عن فقدان الطالب حريته في التعبير ، فلو سألت المعلم لم لا تسمح للطالب بأن يعبر بحرية عما يعلم لأجاب : إن ترك الطالب يعبر بحرية ، يعود بنتائج غير مرضية . وهو جواب غير صحيح لأن نظم التربية والتعليم التي يسير عليها المعلم قد عودته أن يهتم بالنتائج المحسوسة الظاهرة — تلك النتائج التي تظهر المدرسة لدى التفتيش أو عند الامتحان بمظهر رائق ، فهو يخشى صولة التنظيم المتبع أن تقضي عليه ، اذا ترك تلميذه يتدرج بالتعبير الحر ، لأن أول مقادير النمو في الطفل تكون مقرونة بالجهل ، ومنهم

الثابتة ، وتنظم الترتيب ، والمعلم يخشى هذا ، ولا يسأل إلاّ عن الأشياء المرتبة الصحيحة ، كي تتبين بها عين الزائرين . ومن هنا نخلص الى نتيجة ظاهرة تنخر في قواعد مدارسنا وهي أن التفتيش في المدارس لا يجري على الأفراد بل على المجموع قاطبة ، وإن الامتحان في نهاية كل فصل ينظر فيه الى عمل المجموع : فما دام التفتيش وراء المعلم يحصه ، وما دامت الامتحانات تحدق به ، فهو لاجرم يعمل على ارضاء المفتشين ، ويزين لهم نجاح طلابه بالنتائج المموّهة

كلنا نعلم أن المعلم يسعى لا ليؤسس الطفل على قواعد ثابتة ، بل ليبني في عقله بيتاً من المعلومات أوهى من بيت العنكبوت ، في ظاهره زخرف القول ، ابتغاء مرضاة المفتشين ، كأنما الغاية من التربية ارضاء المفتشين ، والنجاح في الامتحان . إن هول الامتحان وشبحه المخيف لا يزايل فكر الطالب — فالامتحان يهدده أنى سار ، فاذا ما عبر الطالب فيه عمّا يخالج نفسه ، جاءت النتائج على غير ما يشتهي المعلم ، فرسب في صفه الحول أو الحولين ظلماً وقسراً وهو ليس بالملوم ، فالامتحانات خطرة وعنيفة وأغلب ما تكون نتائجها ناقصة مضطربة ، والأحرى أن يسمح للطالب أن يعبر عن نفسه بطريق غير الامتحان ؛ فانه إذا لم يسمح له بذلك في بدء حياته الدراسية صعب عليه انتهاج ذلك في باقي حياته . إذا أردنا أن نعين الطفل على النموّ ، وجب علينا أن نقدم شيئين بسخاء وكرم وهما : الغذاء والرياضة — فالغذاء ضروري للنمو ، والحاجة الى الرياضة كبيرة وليست بأقل أهمية من ذلك لنموّ الجسم فأطرافنا وأعضاؤنا وحواسنا ومداركنا لا تنمو إلاّ بالرياضة ، وإنها عند ما تصل الى أقصى درجة في النموّ ، لا يتيسر بقاؤها على الكمال الذي وصلت إليه إلاّ بالاستمرار على الرياضة . ولما كانت القدرة على النموّ غير محدودة في المدارك العقلية والروحية ، كانت الرياضة الدائمة ضرورية لها ، ولا يمكن الاستغناء عنها . ففي عهد الطفولة حيث تكون عوامل النموّ والاتساع في أقوى دوماتها ينجم عن ترك الرياضة عواقب وخيمة ، لا يمكن تقديرها . فاذا حصر طفل صحيح الجسم في سريره حولين من أعوامه الأولى بلا حركة أو درج تضرّر جسمه ، ولا سيما أطرافه ضرراً كبيراً .

وهناك حقيقة أخرى وهي أنه يجب أن يقوم بفعل النموّ الطفلُ نفسه لا غيره ، ولذا

يجب أن يتناول الطفل الغذاء الذي يقدّم إليه بنفسه ، ثم يهضمه بنفسه ، وكذلك نمو أعضائه ومداركه ، فهو وحده الذي يجب أن يمرنها لا غيره : فالنموّ هو الشيء الوحيد الذي لا ينوب عنا أحد بالقيام به ، كما لا يأكل أحد بالنيابة عن غيره ، لأن مشاهدة الآخرين يأكلون لا تغذي أجسامنا ، كما لا يقوي أطرافنا مشاهدة آخرين يمرنون أطرافهم : فالعوامل التي تعمل على نمو الطفل تأتي من الداخل فله — وله وحده — أن يغذيها وأن يستعملها ، وأن يظهرها ، وهذا أمرٌ لا ريب فيه ، إلاّ أننا كثيراً ما نقضي عنه ، رغم جلائه ، لأن أشد الأمور إهمالاً أظهرها وأقربها تناولاً .

إن جميع الحقائق التي ذكرتها آنفاً لا تجد لدينا إلاّ أن الأخذ بها أمرٌ لم يتم بعد ، فيظهر أن نظم التعليم في أكثر الأقطار العربية تتغاضى عن هذه الحقائق ، ولا تقدّرها حق قدرها . لقد كان همّ المعلم أن يقدم للطفل كل شيء ، فهو الذي يغذيه ، وهو الذي يهضم له طعامه ، وهو الذي يأخذ بيده ليتدرّج به على نمو خطاه ، وتمرينه على المشي ، وبذا يصبح الطفل أسيراً مراقباً ومسيطراً عليه .

يحدد المعلم للطفل كل ما يجب أن يقوله أو يشعر به ، ويحصر له ما يجب أن يفكر به ، أو يكتبه ، أو يعمله فيلقي على سطح عقله شيئاً من المعلومات ، ولا يتركه وشأنه لحظة واحدة يفكر فيها منفرداً أو يدرس فيها أو يلجأ فيها الى كتاب يسترشده ، ليكتب ما توحي إليه مداركه ، وهكذا يحول المعلم دون الاستقلال الفكري في الطالب ، فيخرج ضعيفاً في المدارك التي يستولي بها الانسان على العالم ، ويعيش حياته كلاًّ على مولاه الأستاذ الذي قضى على شخصيته ، فطرحه في هذا العالم آلة معطلة لا يعرف للحياة معنىً ، ولا ينشد معنى السعادة من أين وكيف جاء هذا الفهم المغلوط في غاية التربية والتعليم في مدارسنا ؟

لنسأل أنفسنا ما هي المدارك التي تنميها مدارسنا ؟ إن نظرة واحدة إلى جدول الدروس تبين لنا قسمين من العوامل : فالقسم الأول يسمى الإدراك ، والقسم الثاني يسمى التعبير ، فحينما تدلم الدروس من التاريخ والجغرافيا والعلوم الحديثة تكون الغاية تنمية مدارك الطفل المتلقية ، وحينما تعلم دروس الأشياء والرسم والانشاء تكون الغاية تدريب قوى الطفل المعبرة إن المدارك المتلقية هي التي تمكننا من فهم ما يحيط بنا ، وهي ترسم في أنفسنا ، ثم تصبح

ملكاً لنا ، وهي تنقسم قسمين . الأول يختص بالمدارك العقلية التي بها نرى ونلاحظ ، ونفكر ونتأمل ، وندرك ونفهم ونقابل ونحلل . والثاني يختص بالمدارك العاطفية ، وهذه قسمان أيضاً . فالقسم الأول : الخلق والثاني الانجذاب .

وتقسم المدارك المعبرة إلى أربعة أقسام بحسب مخرجها الذي تبرزها ، وللعمل الحرية التامة في استخدام هذه المخارج وما هو مستفاد منها . فالأول اللغة ، والثاني الحركة الشخصية والثالث العمل اليدوي ، والرابع الفن ، ويحتوي تحت المخرج الأول تعلم المواضيع مثل الإنشاء ، الخطي والشفوي ، والقراءة الجهرية وتمثيل الروايات . ويشمل المخرج الثاني تعليم المواضيع كالتمارين الرياضية والألعاب والتمثيل ، ويحتوي المخرج الثالث على تعليم المواضيع كالنجارة والبستنة في مدارس البنين ، والخياطة والطبخ في مدارس البنات ويدخل ضمن المخرج الرابع تعليم المواضيع كالرسم والتصوير والموسيقى . بقي علينا أن نسأل أنفسنا ما هي الصلة بين المدارك العقلية والمدارك المعبرة . وهل من الممكن أن ننمي كلاً منها على حدة ، وهل في الإمكان أن نخصص حصة أسبوعية لتمرين المدارك المعبرة وتلك لرياضة المدارك العقلية وهكذا — لا يمكن ذلك لأن المدارك العقلية والمعبرة لا يمكن اعتبارها وحدتين مستقلتين — فالواحدة متممة للأخرى ، وكل واحدة منهما بمثابة الروح لغيرها ، فإذا انفصلت الواحدة عن مكملتها ضلّت وتعطل عملها .

اذا كان الادراك حيّاً احتاج الى التعبير ، وإذا كان التعبير حيّاً احتاج الى الادراك وعلى ذلك فإنه اذا كان التعبير حيّاً ناشئاً عن ادراك فعال كان شعور الطفل بالأشياء حيّاً حقيقيّاً . ان عوامل الادراك تنمو في الطفل وتظهر بواسطة التعبير لا بطريقة أخرى . أما عوامل التعبير فلا تنمو إلاّ بطريق الادراك . فالطفل الذي يحاول أن يرسم ما يرى ينمو فيه قوة الملاحظة كما أنه ينمي قوة التعبير ، وكلما نمت الأشياء التي تأتي تحت إدراكه أو حسه ازداد علمه ، ومتى ازداد فهماً للأشياء نما عقله وأصبح ذا رأي سديد ، وفكر ثاقب . فالمرء الذي يحاول أن يعرض آراءه في مسألة مرتبة اجتماعية كانت أو سياسية ، أو طبيعية أو اقتصادية ، فإنه يسعى بهذه المحاولة أن يعبر عن فكرة بكل جلاء ، فيجعل من الاضطراب السائد في نفسه انتظاماً وتنسيقاً . وكلما تمكن الاضطراب من عقله نظّم ، وتعمق في الموضوع اتسعت مداركه ، واهتدى الى نواحٍ جديدة لم يكن قد وصل إليها من قبل : فالطفل الذي يحاول أن يرسم ما يرى لا يمكن إنكار الصلة الوثيقة بين الادراك والتعبير ، لأن كلاً منهما يساعد على انماء الآخر حتى في المواضيع الجافة مثل الرياضيات .

يافا — فلسطين شريف النشاشيبي